بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الأستاذ الدكتور محمود السيّد في حفل تأبين المفكر الكبير الأستاذ الدكتور فاخر عاقل رحمه الله

الثلاثاء في 2010/3/2

جامعة دمشق– قاعة رضا سعيد للمؤتمرات

الأستاذ الفاضل الدكتور نبيه عاقل

وآل عاقل الكرام، أيتها الأخوات الفضليات، أيها الأخوة الأحبة

أيها الحفل الكريم

أسعد الله أوقاتكم:

أشرف بأن ألقي كلمتي باسم كلية التربية بجامعة دمشق عمادة وإدارة وأعضاء هيئة تدريسية وطلاباً، هذه الكلية التي وقف العالم الكبير فقيدنا الغالي الأستاذ الدكتور فاخر عاقل جلّ عمره في خدمتها، ورعاها بعلمه الغزير وثقافته الواسعة وعواطفه الوطنية الصادقة، إذ بفضل إشرافه العلمي منحت جامعة دمشق أول درجة للماجستير وأول درجة للدكتوراه، وبرئاسته لقسم علم النفس سنوات طويلة تم تطوير هذا القسم ورفده بكل جديد في ميدانه.

إذا كنا نجتمع اليوم لتأبين الراحل الكبير والعالم الجليل الأستاذ الدكتور فاخر عاقل رحمه الله فإنني لعلى ثقة من أننا لن نتمكن بكلماتنا من إيفائه مكانته الفكرية والمناقبية، إنه العالم بكل ما تحمل كلمة عالم من معانٍ ثقافةً ومعرفةً وخلقاً وتواضعاً وسمواً في القيم، وإن فقدانه خسارة للعلم والثقافة والوطن والأمة والإنسانية.

عرفته من خلال كتاباته قبل أن ألتقيه، وعندما التحقت بكلية التربية لدراسة دبلوم التأهيل التربوي عام 1963 لم يكن آنذاك في الكلية، إذ إنه كان يعمل خارج البلاد، وعندما كنت أحضّر رسالة الدكتوراه في القاهرة كان جهابذة التربية وعلم النفس في مصر يسألونني عن الدكتور فاخر عاقل ويشيدون بعلمه وفضله.

وبعد حيازتي الدكتوراه حاولت نقل ملاكي من وزارة التربية إلى وزارة التعليم

العالي فواجهتني صعوبات، ووحده المرحوم الأستاذ الدكتور فاخر عاقل كان متعاطفاً معي، ومستغرباً من غياب المنطق في السماح لي بالإعارة إلى جامعة وهران بالجزائر ومن ثم الإعارة إلى الكويت، ولم يسمح لي في الانتقال إلى جامعة دمشق، وذلك في السبعينيات من القرن الماضي حيث بقيت ثماني سنوات بعد حصولي على الدكتوراه حتى تمت الموافقة على نقلي إلى الجامعة.

ولكم كانت سعادتي كبيرة عندما نقلت إلى الجامعة في مطلع الثمانينيات من القرن الماضي، ومن دواعي هذه السعادة أنني سأعاصر الدكتور عاقل وأفيد من تجربته الغنية وآرائه الحكيمة!

ولكم لجأت إليه عندما تسلمت وكالة الكلية للشؤون العلمية ومن بعدها العمادة لأستشيره في شؤوننا التربوية فأجد لديه الرأي الحصيف والنصح الأمين والمودة الصافية!

ولئن فاتني شرف التلمذة على يديه عندما كنت طالباً فلم يفتني شرف التلمذة عليه بعد حصولي على الدكتوراه، إذ إنني كنت حريصاً على حضور المحاضرات التي كان يلقيها على الدارسين في دورة تدريبية أقامتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم «الألكسو» عام 1981 في كلية التربية، حيث وجدت في محاضراته الثقافة الواسعة، واللغة الجميلة، والحذر العلمي الذي كان يبديه في إصدار أحكامه، وتركيزه على التربية في العمق فهماً وتمثلاً وإدراكاً وموازنة وربطاً واستنتاجاً وتوظيفاً، كما ألفيت في محاضراته تعزيزه الحوار الديمقراطي الهادئ، إذ لم يكن ليمل من أي سؤال يطرح عليه، ولو كان السؤال في منأى عن الموضوع، فكان يتقبل الأسئلة جميعاً ويناقشها بأسلوب علمي هادئ ورزين يدفع أصحابها إلى الاقتناع بالإجابات الشافية الوافية بكل نفس راضية، ويزين ذلك كله ابتسامته الحانية، فكان رائداً في تفهم الآخرين واستيعابهم وقدوة في الفهم والإفهام والإبلاغ والتواصل، وكان شامخاً في تواضعه، ومتواضعاً في شموخه.

وكانت منهجيته في إعطاء محاضراته وفي تأليف كتبه تتسم بالعمق في التفكير، والبراعة في التحليل، والترتيب في الأفكار، والإحاطة بالمعاني. وتبدى ذلك كله في محاضراته ومؤلفاته تنسيقاً وترتيباً ودقة وتأثراً بالمنطق وأقيسته، يزين ذلك كله أسلوب أنيق العبارة، واضح الدلالة، بعيد عن الغموض والالتباس، قريب إلى قلوب الناس.

كان فقيدنا الغالي رحمه الله طيّب القلب ونقيه ورقيق الشعور ومرهفه، وكان عذب الحديث واضح الفكر، صريح الكلام، يدعو إلى المحبة والوئام، صادق المودة، نافذ البصر والرؤية، زاهداً بالمناصب والشهرة، قومي الانتماء، إنساني النزعة، عزيز النفس وأبيها.

عرفت فيه سمو الأخلاق، ونزاهة السلوك، وإتقان الأداء، والتبتل على محراب الوطن بكل معاني الانتماء وسمو الوفاء، وهذه الصفات كافة جعلته محترم الرأي في جميع المواضع التي عمل فيها، ومحبوباً من الجميع بفضل تواضعه وإخلاصه وتجرده وإيمانه بالحق والحقيقة.

عاش فقيدنا الغالي عبر مسيرة حياته في عالم القيم والمثل، عالم الحق والخير والجمال، فجسد ذلك كله في سلوكاته وتصرفاته فهماً ونزوعاً وأداءً، وتبدى لعارفيه منسجماً مع مبادئه، وفياً لقيمه، جريئاً في قول الحق، حريصاً على الأكمل والأجمل والأبهى في عالمه، لأنه جمع بين العلم والفضيلة، مجسداً مقولة سقراط إن المعرفة أساس الفضيلة.

جبلته العطاء، وشيمته الوفاء، وهب عصارة فكره طلابه وزملاءه، ووهب مكتبته الخاصة الزاخرة بمختلف فنون المعرفة مكتبة الوطن «مكتبة الأسد»، ووهب المكتبة العربية المؤلفات القيمة إذ إنه أغناها بكتبه القيمة والرائدة تأليفاً وترجمة ومعاجم، وزينت مقالاته المجلات التربوية على نطاق الساحة القومية، وماذا عساي أن أعدد من نتاجه الفكري: مدارس علم النفس، أصول علم النفس، علم النفس التربوي، التعلم ونظرياته، اعرف نفسك، معالم التربية، التربية قديمها وحديثها،

الإبداع وتربيته.

ولن أتمكن من الحديث عن الإنجازات الضخمة التي أغنى بها المكتبة العربية في ميادين علم النفس، والتربية، وإن لم يكن له إلا معجم علم النفس لكفاه فخراً في مسيرة حياته العلمية، ذلك لأن العمل المعجمي من أشق الأمور وأصعبها، ويعجز فريق العمل عن إنجازه، فكيف تأتى له وضع ما يزيد على ثمانية آلاف مصطلح في هذا الميدان باللغات الثلاث العربية والإنجليزية والفرنسية؟

وإن كنت أنسى فلا يمكنني أن أنسى آخر محاضرة حضرتها لفقيدنا الكبير في الندوة الثقافية النسائية بدمشق عام 2004، وكانت المحاضرة عن «المحبة في حياة البشر» وبدماثته المعهودة شكرني على حضور المحاضرة وقال مبتسماً: هل لديك وقت لحضور المحاضرات، أعانك الله على عملك، وكنت حينئذ وزيراً للثقافة فقلت له: إن العلم يؤتى إليه يا أستاذنا الجليل، والكسب لأي امرئ في حضور محاضراتك وارتشاف رحيق الحكمة من معينك، وسرّ أيما سرور عندما رويت له أبياتاً شعرية تتضمن معاني الحب لابن عربي إذ يقول:

أدين بدين الحب أنّى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

وأبي ماضي إذ يقول:

لا تطلبنّ محبة من جاهل فالمرء ليس يحب حتى يفهما

كما يقول:

إن نفساً لم يشرق الحب فيها هي نفس لم تدر ما معناها

أنا بالحب قد تعرفت على نفسي وبالحب قد عرفت الله

وبدوي الجبل إذ يقول:

وما بنيت إلا على الحب أمة ولا عزَّ إلا بالحنان زعيمُ

هو الحب حتى يكرم العسر موسر ويأسى لأحزان الغني عديمُ

ولقد حلّق بجمهوره في محاضرته تلك إلى سماء المحبة، بأسلوب ساحر ولفظ رشيق وأنيق.

كثيرة تلك الفوائد التي زودنا بها فقيدنا الغالي، وسامية منظومة القيم التربوية التي ركز عليها ومنها:

- أن العلم الذي يجمع بين الأصالة والمعاصرة هو سبيل نهضة الأمة.
- أن الحب بمنظومته الشاملة هو أهم حاجات البشرية وأسمى القيم التربوية التي ترتقي بالإنسان إلى مدارج الكمال والجمال والبهاء.
- أن العقل هو أفضل نعمة وهبها الله للإنسان على أن يوظف المرء هذا العقل في خدمة مجتمعه وأمته والإنسانية جمعاء.
- أن إتقان العمل هو الذي يجعل المواطن مقدراً ومعتبراً في منظومة القيم كافة وعلى الصعد كافة.
- أن الانتماء للوطن هو أجل واجب على كل مواطن التحلي به سلوكاً وأداءً.
- أن مهنة التدريس ثوب أبيض لا أنقى ولا أصفى، وعلى صاحبها أن يحافظ على نقاء هذا الثوب، ومن وضع نفسه مواضع التهم فلا يلومَنَّ من أساء به الظن.
- أن تربية الإبداع هي سبيل التقدم لأن المبدعين هم الثروة الحقيقية للأمة.

تلك هي باقة من القيم التي نبه عليها ومارسها «المحبة- إتقان العمل- تربية الإبداع- الشغف بالقراءة- التسلح بالعلم- الانتماء للوطن».

وما أجل وما أسمى تلك الرسائل التي وجهها إلى أبنائه ومن خلالهم إلى الجيل إذ يقول في رسالته إلى ابنه بشر: لو سألتني عن أهم صفة من صفات هذا العصر الذي تعيش فيه يا بني لقلت لك غير متردد: إنه عصر العمل، ولو سألتني عن أهم مكتشفات هذا القرن الذي شهد مولدك وأرجو ألا يشهد موتك لقلت لك: إنها قيمة العمل، قيمته في بناء حياة الفرد وقيمته في بناء المجتمع، وقيمته في بناء الإنسانية، ولعلك ملاحظ أننا في زمان لم تعد للوراثة فيه قيمة، وأعني بالوراثة الأملاك أو وراثة الثروة، أو وراثة المصنع، أوراثة اللقب أو غير ذلك من أشكال

الوراثة الاجتماعية. إن قيمة الإنسان في عصرنا هذا فيما يحسن عمله».

ويتابع قائلاً: دعني أكشف لك سراً خطيراً سراً طالما بحث الإنسان عنه بعيداً وهو في متناول يده وأعني به سر السعادة: السعادة أيها الحبيب في القيام بالعمل الذي تحب على الوجه الأمثل وبالجهد اللازم، حذار أن تظن أن السعادة تطرق باب الكسلان أو تأتي عن طريق الأعمال السهلة.

إذا أردت السعادة الحقيقية وجب عليك أن تجتهد في القيام بعمل محبب وعلى وجه صحيح، وبذلك فقط تكون فناناً وتكون سعيداً وتكون قبل كل هذا وبعده مواطناً صالحاً وإنساناً خلوقاً».

أيها الحفل الكريم:

إذا كان يقال: لا يعرف الفضل إلا ذووه، فإن السيد الرئيس بشار الأسد في ذروة ذوي الفضل وما كان ليمنح الأستاذ الدكتور فاخر عاقل وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة إلا تقديراً من سيادته لفضل العاقل وعلمه وثقافته وإخلاصه وتعلقه بوطنه.

رحم الله فقيدنا الغالي المفكر الكبير الأستاذ الدكتور فاخر عاقل الرحمة الواسعة، سعة ما أعطاه لأمته من أفانين العطاء، وجعل الجنة مثواه، وتعازينا القلبية الحارة لأخوته وابنه وابنتيه ولآله، ووهب الله الصبر أهله وذويه ومحبيه وعارفيه، ولئن غاب عنا جسماً وبعد مقاماً فإنه حي في عقولنا وقلوبنا ووجداناتنا بآثاره القيمة وبسيرته المناقبية العطرة، وها نحن أولاء نردد:

يضوعُ عبير المسك إذ ذكر اسمه فنذكره والطيب يعشقه القلب

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.